نظرة تاريخية للحضارتين المسيحية والإسلامية والعلاقة بين سيطرة رجال الدين وتراجع التربية والعلوم

أ.م.د. رشيد احمد محمد السامرائي
جامعة سامراء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية
rashidalsamarray@gmail.com

الملخص:

لاحظنا في اثناء دراسة التاريخ أن هناك عاملًا متغيرًا مع التسلسل الزمني، فالنهضة التي حصلت في اليونان ولاسيما سنة (570 ق م) أن التربية في اليونان كانت من ارقي نماذج التربية في العالم، والتي انتجت حضارة وفكرًا من اعلى طراز قد انتجت فلاسفة مفكرين تمثلوا في صولون الحكيم وسقراط وافلاطون وارسطو، وطاليس وانكسمندريس والمدينة الفاضلة والمنطق الارسطي والاوركانون والأخلاق والسياسة وقسم ابقراط والمارثون والاولمبياد وفنون التراجيديا والكوميديا إلخ....

وبعد سيطرة روما عسكريًا وسياسيًا على اليونان وسواحل المتوسط، تقلص دور الفكر نتيجة السلوك العنيف للدولة الرومانية التي ورثت الحضارة اليونانية، وتم تحجيم الإرث العلمي؛ لأمرين، الأول: الاتجاه العسكري للرومان، ثم تقلصت العلوم والتربية الرومانية وأكثر. والامر الثاني بعد انتشار المسيحية بعد حكم قسطنطين (306– 303م) واعتماد المسيحية الدين الرسمي للدولة (سنة 380م) وبعد وثيقة قسطنطين وسيطرة رجال الدين تقلصت بل اضمحلت العلوم وأصبح ذكر رجال الفكر اليونان وفلسفتهم وكتبهم تعد تهمة بحد ذاتها، واصبح الاهتمام بكل ما يخص الانسان من الفنون والموسيقى والآداب والرياضة محرمًا، وممنوعًا ويثير غضب رجال الدين ثم غضب الدولة التي يسخرها رجال الدين، حتى دخلت اوربا اثر ذلك في العصور المظلمة، التي دامت الى عصر النهضة التي حصلت نتيجة تحدٍ واستجابة واستثارة من البلاد الإسلامية.

اما في منطقة الشرق المتوسط او ما يسمى بالشرق الأوسط، فكانت قبل الإسلام تعيش في تشتت وفيها شذرات من العلوم والفنون ، وما كان يحفظه العرب من فنون الشعر، ولكن بعد انتشار الإسلام تغير الوضع، فالدين الاسلامي يدعو لطلب العلم بصورة واضحة، وظهر ذلك جليًا في زمن الدولة العباسية، فقد ترجمت كل كتب الفكر من اليونانية والسنسكريتية، والسريانية، نتيجة لما تمتع به رجال العلم من حرية في طلب العلم، إذ إن الحكم للخليفة وليس لرجال الدين، لا بل نتيجة لما تلقاه رجال العلم من دعم، إذ يوزن الكتاب بالفضة او الذهب، ثم حصول النهضة في الشرق الإسلامي بعد انتشار الإسلام، ولاسيما في بغداد (170 هه – 786) م بعد أن اغدق هارون الرشيد العطايا لأهل العلم، ثم في قرطبة وباقي الحواضر الإسلامية، ثم بداية التدهور بالحضارة الإسلامية بعد ضعف الخلافة في بغداد(333 هه 944 م) وسيطرة

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

جهات أخرى وإصدار كتب واوامر بتحريم الفلسفة والفكر ومحنة الفيلسوف ابن رشد في قرطبة. ثم نهضة اوربا في العصر الحديث بعد (1453م).

الكلمات المفتاحية: الحضارة العربية، الحضارة المسيحية ازدهار التربية، تراجع التربية، محاكم التفتيش، الكاثوليك، الخليفة.

A Historical Perspective on Christian and Islamic Civilizations and the Relationship between Clerical Authority and the Decline of Education and Sciences

Dr. Rashid Ahmed Muhammad Al-Samarrai
Samarra University/ College of Education for Human Sciences

Abstract:

We noticed, while studying history, that there is a changing factor across the chronological sequence. The renaissance that occurred in Greece—especially around 570 BC—made Greek education one of the most advanced models of education in the world. It produced a civilization and an intellectual tradition of the highest caliber, giving rise to great philosophers and thinkers such as Solon the Wise, Socrates, Plato, Aristotle, Thales, and Anaximander. It also gave birth to concepts such as the ideal city, Aristotelian logic, Organon, ethics, politics, the Hippocratic Oath, the Marathon, the Olympic Games, and the arts of tragedy and comedy, among others.

After Rome gained military and political control over Greece and the Mediterranean coasts, the role of intellectual life diminished due to the violent conduct of the Roman state, which had inherited Greek civilization. The scientific legacy was curtailed for two main reasons. First, the militaristic orientation of the Romans led to a decline in sciences and education. Second, after the spread of Christianity during the reign of Constantine (306–337 AD) and its adoption as the official religion of the state in 380 AD and following Constantine's Edict and the dominance of the clergy, the sciences diminished—indeed, they nearly vanished. Mentioning Greek thinkers, their philosophy, and their books became an accusation in itself. Interest in everything related to human life—arts, music, literature, and sports—was forbidden and condemned, provoking the anger of the clergy and, consequently, the state they influenced. As a result, Europe entered what became known as the Dark Ages, which lasted until the Renaissance that emerged as a response and stimulus influenced by the Islamic lands.

As for the eastern Mediterranean region, or what is called the Middle East, it lived in fragmentation before Islam, possessing only fragments of sciences and arts, along with the poetic traditions preserved by the Arabs. However, after the spread of Islam, the situation changed. The Islamic religion clearly calls for the pursuit of knowledge, and this became evident during the Abbasid state. All major works of thought were translated from Greek, Sanskrit, and Syriac, due to the

freedom scholars enjoyed in seeking knowledge. Authority rested with the caliph rather than the clergy, and scholars received substantial support—books were weighed against silver or gold as reward. A renaissance thus arose in the Islamic East after the spread of Islam, especially in Baghdad (founded 762 AD / 145 AH), when Harun al-Rashid generously patronized scholars, and later in Córdoba and other Islamic urban centers. The beginning of decline in Islamic civilization came after the weakening of the caliphate in Baghdad (944 AD / 333 AH), the rise of other powers, the issuance of books and decrees prohibiting philosophy and rational thought, and the ordeal of the philosopher Ibn Rushd in Córdoba. Europe then experienced its modern revival after 1453 AD.

Keywords: Arab civilization, Christian civilization, flourishing of education, decline of education, Inquisition, Catholics, Caliph.

المقدمة:

إن هذا البحث يجمع بين التاريخ والفلسفة وفلسفة التاريخ والتربية، وهذا الموضوع لم يكن بأحد من هذه العلوم أن يتناوله بتلك السعة، ولكن بحكم كون تخصصنا فلسفة والتخصص الدقيق فلسفة تاريخ وفلسفة التربية، لذا سيكون البحث عرض صورة بانورامية للأحداث وبالأدلة، وتفسير تلك الاحداث والربط بينها، ومحاولة الوصول الى الأسباب، وهل سببها الدين ام رجال الدين، وهو بحث عن أسباب الرقي وأسباب الانهيار، ففي اليونان، ما سبب الازدهار العلمي والتربوي والحضاري والفلسفي في اليونان ثم روما؟

إشكالية البحث:

هناك جدلية حول علاقة الاديان بالعلوم والتطور العلمي من حيث ازدهارها او انهيارها.

فهل المشكلة في الدين ام في رجال الدين؟

تساؤلات البحث:

ما سبب التربية الحسنة وازدهار العلوم في اليونان؟

وما سبب التدهور العلمي والتربوي والثقافي في روما بعد انتشار المسيحية؟

بسبب التقدم والتطور للعلوم في الدولة الإسلامية بعد انتشار الإسلام؟

وانعدام الحرية هي سبب تدهور الحضارة العربية الإسلامية في العصور الإسلامية المتأخرة؟

وما سبب تطور وازدهار اوربا في العصر الحديث؟

ما العامل المتغير الذي ينخفض او يزيد مع تغير السلطات، الذي بسببه تتحسن او تسوء التربية؟

هذا تسلسل زمني ونقل لصورة العلوم في تلك الأزمنة، وملاحظة العامل المتغير في تلك الأزمنة، فالعامل المتغير جيئة وذهابًا، لابد أن يكون هو العامل المسبب وراء هذا التغير

الفروض:

نفترض أن الحرية الفكرية هي العامل الأول في الازدهار والانهيار، إذ إن العلاقة تسير مرتبطة بالحرية الفكرية زيادة ونقصانًا جيئة وذهابًا بحسب العوامل المؤثرة.

1- بسبب سيطرة رجال الدين على السلطتين الدينية والدنيوية، تقلصت الحريات، ولاسيما بعد وثيقة قسطنطين.
2- وجود سلطة قوية في الشرق الاسلامي تعامل الجميع بالتساوي، اوجدت هامشًا من الحماية والحرية، وهو سبب ازدهار الشرق.
3- الرابط المشترك بين كل العصور التي تسمى بالمظلمة في اوربا وغيرها، هي العصور التي جعلت العلوم تقتصر على العلوم الدينية فقط وترك كل العلوم العقلية والتجريبية.
4- تعاون الكنيسة مع النبلاء والحكام المحللين على زيادة الجهل بتحريم دراسة العلوم وحرق الكتب ومن يكتبها.
5- القيود على الحريات فإما تأخذ اطارًا دينيًا او سياسيًا؟ ووجود الحرية عامل مساعد للازدهار، ولكن العامل الفاعل هو دعم الدولة وتشجيعهم بالعطاء الجزيل لجانب معين.
6- حرية العيش وتقبل الاخر من الأديان الاخرى في البلاد الإسلامية في كل الظروف أفضل من العيش في البلاد الاوربية زمن سيطرة الكنيسة.
7- دعوة الإسلام للعلم وطلب العلم في الآيات والأحاديث كان سابقا لعصره، وثورة على ما قبله.

– ما الحرية؟ إنها كائن ضعيف مسالم، محصور بين سلطات ارادت التسلط والسيطرة، السلطات الدينية والدنيوية اللتان تعاونتا ضد الحرية في حين أن الحرية من دون سلطة او أدوات حكم.

هناك علاقة ترابط بين سيطرة رجال الدين وتدهور العلوم في اوربا او في الشرق.

إن تلك الفرضيات تجيب بعضها عن بعض او تكمل بعضها بعضًا.

المنهج المتبع:

اتبعت عدة مناهج: الوصفي، والاستقرائي، والمقارن .

التربية اليونانية في اثينا ثم في روما

لابد من التوضيح أن اثينا كانت تتمتع بحرية واسعة، فكانت النهضة الفكرية ؛ وذلك لاهتمام الناس بالفلسفة والعلوم والفنون، ولعدم وجود قيود دينية او سياسية او عسكرية(اي: احتلال)انتجت لنا اثينا كل هذا الكم الهائل من هذا الابداع البشري ، ثم سيطرة روما ولكن اهتمامات الدولة عسكرية، وقل اهتمام الدولة بالعلوم،

قد تكون موجودة الحرية الفكرية ولا قيود دينية ولكن لاوجود للدعم الإيجابي من الدولة، فضعفت النهضة العلمية، وعندما أصبحت روما مسيحية، عندها ترك قسطنطين روما للكنيسة الغربية ونقل عاصمة الدولة للقسطنطينية، فأصبحت الشعوب الغربية تحت سلطة الكنيسة والنبلاء ومن دون امبراطور. اما القسطنطينية (نسبةً الى الامبراطور قسطنطين) العاصمة الجديدة ففيها امبراطور يحكم وفيها كنيسة اختلفت عن الكنيسة الغربية في روما فأصبحت هناك كنيستان الكنيسة الشرقية إضافة إلى الغربية.

وفي دراستنا للتاريخ يجب التفرقة بين سيطرة الدين وسيطرة رجال الدين، واخذهم السلطة المطلقة. وتحكمهم بالأمور الدينية والدنيوية

ونتيجة للحرية التي تمتع بها الشعب اليوناني، أنتجت لنا الديمقراطية الوليدة في اثينا، حيث حولوا مجرى الصراع من السيف الى الكلمة، والتبادل السلمي للحكم والسلطة، وكذلك كانت الحرية في اتباع المنهج التربوي، والمناهج التي كانت محببة لنفوس الطلبة، إذ كان ثلثا الدراسة رياضة وموسيقى والثلث الأخير هو تدريس العلوم. هذا المنهج المحبب والحرية التي يتمتع بها أهالي اثينا ولد هذا الفكر في ذلك الزمن.

وهذا الرقي من الفكر ورثته الحضارة الرومانية الوثنية قبل المسيحية، وعلى الرغم من كون الدولة الرومانية دولة عسكرية، إلا أن أثر الحضارة اليونانية وفكرها كانت موجودة في روما وارجاء الدولة الرومانية، ولكن الجانب الفكري في الدولة تأثر كثيرًا وبدأ بالتصدع، ونرى السبب هو أن الدولة عسكرية تدعم او تغدق العطايا للقادة ولمن ينتصر في المعارك، فلا اهتمام بالعلوم والفلسفة والفنون، ابطال المجتمع هم العسكر.

اعتماد المسيحية في روما دينًا رسميًا

جاء اليوم الذي سيطرت فيه الكنيسة على مقاليد الأمور في روما بعد انتشار المسيحية في ارجاء الدولة الرومانية ثم أصبح القيصر مسيحيًا ثم اصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي، وهنا نأخذ بآراء أشهر المفكرين الاوربيين الذين كتبوا في الموضوع، فضلًا عن عدد من الكتاب العرب.

قال برتراند رسل: " فقد كان من اهم الأسباب التي اتاحت للبابوات ضمان مركزهم المسيطر في الغرب، هو ذلك الفراغ السياسي الذي تركه زوال الإمبراطورية الرومانية، اما البطاركة الشرقيون الذين كانت سلطة الإمبراطورية تحد من سلطتهم ونفوذهم. فلم يكونوا يستجيبون في أي وقت يستجيبوا لمطالب أساقفة روما، وانتهى الامر بالكنائس الشرقية الى أن سلكت طريقًا خاصًا بها"(رسل، ص267) إن هذا يدل على أن الدولة هي عامل توازن؛ لئلا يميل الناس وحتى رجال الدين للتطرف.

أكد ول ديورانت" أن الكنيسة لم تظفر بالنصر على اعدائها حتى امتنعت عن المناداة بالتسامح، فكانت تنظر بنفس النظرة التي تنظر بها الدولة الى من ينشق عنها او الثورة على الدولة."(ديورانت، ج20، ص111) المسيحية كانت تدعو للسلام والتسامح، ولكن الانتصارات التي حققتها الكنيسة بعد أن تخلت عن التسامح وتحولت للعنف .

بداية المسيحية رسميًا في الدولة الرومانية كانت مع الامبراطور قسطنطين، إذ إنه افاد من المسيحيين قبل أن يعتمد المسيحية كدين للدولة، فقد ساعده على توطيد حكمه اثنا عشر فيلقًا من المسيحيين المؤيدين له، وأعجبه النظام بين المسيحيين واخلاقهم الحميدة وسلوكهم وشعائرهم قياسًا بالشعائر الوثنية. وطاعة المسيحيين لمسؤوليهم في الدين، وكذلك عرف عنهم الرضى صاغرين بالفوارق في الحياة، واملهم هو السعادة في العالم الاخر (ديورانت، ج 19، ص222) واماله أن يغير ويطهر هذا الدين حياة الرومان.

والامر المهم والمفصلي الذي قد يكون هو ما دفع قسطنطين الى اعتماد المسيحية الدين الرسمي للدولة الرومانية، قال ول ديورانت: " وقلما كان المسيحيون يخرجون على الدولة، رغم ما لاقوه من ضروب الاضطهاد الشديد، وذلك لأن معلميهم قد غرسوا في نفوسهم واجب الخضوع للسلطات المدنيين، ولقنوهم حق الملوك المقدس، وقسطنطين كان يأمل أن يكون ملكًا مطلق السلطان، وهذا النوع من الحكم يستفيد من هذا النظام الديني لامحالة، وبدا له أن النظام الكهنوتي وسلطات الكنيسة الدنيوي، يقيمان نظامًا روحيًا يناسب النظام الذي ينوي اقامته، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من اساقفة وقساوسة، يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها" .(ول ديورانت قصة الحضارة ج 19 ص222– 223) إنه أراد الاستفادة او تسخير المسيحية لخدمته ونظامه، ومحاولة تجديد الدولة، فأعجبته الطاعة للحاكم والرضى يمنع الثورة، فكان ذهابه للمسيحية لمصلحة دنيوية، وهذا الامر يشبه تمامًا ما حصل في الصين سنة 500 ق م، إذ إن الامبراطور الصيني اعجبته أفكار وتعاليم كونفوشيوس الفلسفية الإصلاحية، واعتمدت في الدولة تلك التعاليم في التربية والتعليم ووظائف الحكومة؛ لأنها تدعو الشعب الى طاعة الحاكم طاعة عمياء، وأن سلطته مطلقة، والحاكم سلطته إلهية، فعندما طبقت واعتمدت في الصين دام حكم الاباطرة 2400 سنة، الى عام 1895م عندما تم تغيير المناهج في الصين الى المناهج الحديثة الغربية، تزعزعت صورة الامبراطور عند الشعب وبعد 28 سقط حكم الامبراطور في الصين في 1924م.

نعود الى الامبراطور قسطنطين، الذي أبدى اعجابه بالنظام المسيحي والمنفعة المتبادلة ليكون مقبولًا من قبل الوثنيين والمسيحيين في اول الامر، فقد جدد بناء الهياكل او الوثنية، وقام بكل المراسيم – بوصفه الكاهن الأكبر– التي تطلبها الطقوس المعتادة، واستعمل ألفاظًا توحيدية مقبولة من الطرفين ولاسيما الوثنيين؛ لأنهم الغالبية، واستعمل في تدشين القسطنطينية شعائر وثنية ومسيحية، ولما توطدت اركان دولته بدأت محاباة المسيحيين، وبعد سنة 317 م قام بمحو الصورة الوثنية من نقوده الواحدة تلو أخرى من عليها، حتى

عام 323 م إذ محا كل ما عليها من نقوش وثنية، وأصبحت محايدة لا وثنية والمسيحية، (ينظر : ديورانت، ج 19 ص223)

ومن صور المجاملات والمحاباة للمسيحية، من المراسيم القانونية، خول الأساقفة المسيحيين حق الفصل فيما يقع من خلافات في كنائسهم، ثم قانون اعفى أملاك الكنيسة العقارية من الضرائب، وجعل أي جماعة مسيحية شخصية معنوية قضائيًا، ومجازة في امتلاك العقارات وتقبل ما يوهب لها، وأصبحت الكنيسة هي الوريث الشرعي لأملاك من يستشهد وليس له احد من الذرية، وشيد الكنائس، واعانهم بالمال وابتهجت الكنيسة بأعماله، ومدحه وشكره المسيحيون (ديورانت، ج 19، ص 223– 224)

كان القرن الخامس محتدمًا واضطربت الكنيسة فصدر ذلك جدال معقد حول تجسد المسيح، وطرفا الجدال رجلان من الكنيسة وهما: (نسطوريوس بطرق القسطنطينة)، (وكيرلس بطرق الإسكندرية) ولكن انتهى الخلاف الى أن اصبح الأول زنديقًا والثاني قديسًا، والخلاف عن العلاقة بين إلهية المسيح وانسانيته، فالقديس كيرلس دافع عن وحدة المسيح ولم يفرق بين الجانب الإلهي والإنساني في السيد المسيح، ورأي نسطوريوس أن المسيح ذو طبيعتين، طبيعة إنسانية وطبيعة إلهية، وتبع المذهب النسطوري من القسطنطينية الى الشام الى سيناء، اي: شرق السويس، اما الاكيرلوس فمن غرب السويس وافريقيا ثم الكنيسة الغربية تبعته، (ينظر: رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص100– 101 –102)

ونجد المدن الرومانية قد عانت من نقص في السكان، حتى إن اسقف الإسكندرية شكا ذلك وكانت تفخر بكثرة سكانها، وكان يتألم القس لنقص الجنس البشري، ومن كان تزداد اعدادهم في ذلك الوقت إلا السكان البرابرة الشرقيين داخل الإمبراطورية وخارجها، والسبب الأكبر لنقص السكان هو تحديد النسل، الوسيلة التي كانت تتبعها الطبقات المتعلمة، ثم سرت العدوى الى الطبقات الأدنى المشهورة بكثرة الأبناء، وفي سنة 100 م وصلت تلك العادة الى الزراع، وقل السكان في الولايات الغربية وانتشرت عادة وأد الأبناء نتيجة للفقر (ينظر: رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص 247) وأصبح تحديد النسل علامة الرقي، وهذا موجود اليوم في كثير من المجتمعات.

قال ول ديورانت ان عظيم المؤرخين: "إن المسيحية كانت اهم أسباب سقوط الدولة الرومانية؛ لأن هذا الدين ومن يسير على نهجه قد قضى على العقائد التي كانت الدعامة الخلقية والسياسية للنفوس وللدولة الرومانية، ولأن هذا الدين ناصب الثقافة القديمة العداء، فحارب العلم والتربية والفلسفة والادب والفن، وجاء بالتصوف الشرقي الموهن وادخله في الرواقية الواقعية." (رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص 249.) وعن سبب سقوط روما واحتضارها، رأى وول ديورانت أن الناس فقدوا ايمانهم بالدولة ليس بسبب ابعاد المسيحية لعواطفهم، بل لأن الدولة تنصر الثروة على الفقراء، والحروب تقوم لأسر العبيد، والضرائب تفرض على

الكادحين لتعين المترفين، والدولة عاجزة عن حماية الشعب من الجوع، والاوبئة، فلا يقع اللوم على الناس إذا تحولوا عن القيصر الذي يدعو للحرب، الى المسيحية التي تدعو للسلام. (ديورانت، ج 19، ص250) هدف الدولة الحرب، ووقودها الشعب وفائدتها ومكاسبها للأغنياء والجيش يعاني ويعذب ويموت لخدمة اسياده.

قال الدكتور حسن عبد الحميد: " إن روما التي فتحت بلاد اليونان بقوة السلاح، قد عادت بلاد اليونان وسيطرت بدورها بقوة الفكر وسلطان العقل على فاتحيها وأصبحت ثقافة وعلوم اليونان هي الغاية التي يصبو لها الرومان في عالم الفكر (عبد الحميد، عالم الفكر، ص156) البناء الفكري للحضارة اليونانية، هو الذي سيطر في الاخر؛ لأن الرومان لم يكن لهم بناء او اهتمام بهذا الجانب.

التربية والعلوم في روما بعد انتشار المسيحية (العصور المظلمة)

عبارة العصور المظلمة هي التي نسمي بها المدة بين (600م –1000م) نحصر اهتمامنا في اوربا، اما في الحضارة الصينية فأعظم عصر في الشعر الصيني، وكذلك الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في تلك المدة من حدود الصين والهند الى حدود فرنسا (رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص147).

والإسكندرية التي اندلع اللهب والدخان فوقها، إنه دليل واضح ومؤلم على التفكير الغريب، إذ كانت الإسكندرية مركز وكنز المعرفة اليونانية، حينذاك، وعندما أصبحت مركزًا للكنيسة المسيحية اضافة الى روما، حرقت نفائس ثمينة لا تعوض من شعر وادب، وفلسفة وتاريخ وكل ثقافة الاغريق، احرقتها وبددتها الجموع من المتعصبين من المسيحيين.

وفي عام 48 ق م عندما حاصر يوليوس قيصر الإسكندرية، اتلف جزءًا كبيرًا من المكتبة، ولكن عوضته كليوباترا من مكتبة برجامون، وعندما جاء القرن الثالث للميلاد اغلق احد البطاركة مدرسة المتحف في الإسكندرية وتم ابعاد طلبتها، اما أيام حكم القيصر فالنس valens 336 م فتحول المتحف الى كنيسة، وتم تسليم المكتبة لها وطرد الفلاسفة منها واتهمتهم بالسحر والشعوذة.(زيغريد هونكة، شمس العرب، ص362) هذا ما كان في مصر

وأكد برتراند رسل أن التشدد ظهر نتيجة للخلاف، نرى (القديس كيرلس) المدافع عن وحدة المسيح حد التعصب، استعمل منصب البطريركية في اثارة المذابح ضد الجالية اليهودية الكبيرة في الإسكندرية، واشتهر بمحاكمته (لهيباشيا) ومعاقبتها بصورة غير قانونية، وهي سيدة يهودية انصرفت في عهد التعصب لدراسة الفلسفة الافلاطونية الجديدة، واتجهت بمواهبها للرياضة، فانتزعت من عربتها انتزاعًا، وعريت من ثيابها، وجرت للكنيسة وذبحت ذبحًا وحشيًا، وكشط لحمها وألقي في النار. ونتيجة لذلك لم يعكر الفلاسفة صفو

الإسكندرية (برتراند رسل تاريخ الفلسفة الغربية، ص 101) إن الاعمال القاسية قد تتم باسم الدين او الشعائر الدينية، وما أسهل الامر على رجال الدين أن يجدوا في الأديان ما يدعم رغباتهم واثارة اراء العامة من الناس واثارة عواطفهم، وهؤلاء يتصرفون بعواطفهم لا بعقولهم.

وفي سنة 381م حصل البطريرك ثيوفليس على اصدار امر تخريب السيرابيون من القيصر تبوديسوس Theodosius، ويعدّ اكبر الاكاديميات المتبقية وآخرها، واشعلت النار في المكتبة الثمينة التابعة له، وهكذا تم إخفاء المراكز الحضارية الاغريقية، واحدًا بعد الاخر، واخر مدرسة تدرس الفلسفة في اثينا معقل الحضارة اليونانية أغلقت سنة 529م، وفي روما سنة 600م تم احراق مكتبة البلاتين (هونكة، ص362– 363) ونجد هونكة بكل حيادية على الرغم من مناهضة قسم من أبناء قومها، إذ أكدت أن الاسكندرية حينما فتحها العرب في 642م لم تكن فيها مكتبات من زمن قد مضى، وما اتهم به عمرو بن العاص أنه احرق مكتبة الإسكندرية، والتي تعطي اليوم صورة عن البربرية والوحشية، واثبت بالبحث عدة مرات أن ذلك مختلق وليس له من الصحة نصيب، (هونكة، ص362) إن هونكة تنصف على الرغم من اراء كثير من أبناء جلدتها في اتهام المسلمين.

وأكدت زيغريد هونكة المؤرخة الألمانية أن الاب ايرونيموس ذكر أن الفكر الاغريقي ليس سوى لعنة نزلت على البشر، وقد تم ترجمة الانجيل الى اللاتينية؛ لطرد فكر وذكر شاعر اليونان هوميروس Homar وفيرجل Vergil ، وقد كان استعمال العقل في بحث أمور الطبيعة، وعدم البحث بالتعاليم الدينية، يعدّ إساءة لاستعمال القوى التي اعطاها لنا الله. (زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص361)

قال فولتير في رسالته السابعة حول الحكومة: " إن وليم الفاتح 1028– 1087 في إنكلترا حكم بمقامع من حديد... أن جعل عقوبة الموت جزاء الإنكليزي الذي يجرؤ على حيازة نار ونور في بيته بعد الساعة الثامنة مساءً، ليحول دون اجتماعات الانجليز ليلًا"(فولتير، ص71) هذا الظلام في لندن في الوقت الذي كانت شوارع بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة تضاء ليلًا بالمصابيح الزيتية او النفطية، وتعيش لندن في ظلام.

وأكد كذلك فولتير في إنكلترا، كان الكهنة –بحسب ادعائهم– وسطاء فيما بين الله والبشر، فيضعون قوانين ثم يحرمون وقد يحكمون بالموت، ويتبعهم الأساقفة بالتسلسل، في سلطتهم الزمنية كما في حكم القوط والوندال، ثم يأتي البابوات على رأس التسلسل، فيخيف ويرعب الملوك منهم منشورات او مراسيم او أوامر، او يخلعون الملوك او يتم ارسال من يغتال الملوك. ويحولون إليهم كل ما يستطيعون تحويله من أموال من اوربا. ونجد أن أبناس أحد طغاة الحكومة الإنجليزية السباعية، الذي حج الى روما، لأجل أن يدفع دينار القديس بطرس كرسم عن كل بيت في المنطقة، وكل جزيرة إنكلترا ما لبثت أن اقتدت به، وأضحت إنكلترا من الولايات التابعة للبابا (فولتير، ص 72–73) الكنيسة تتوسع سيطرتها خطوة خطوة.

وعن تحرر بريطانيا وفرنسا من سلطة الكنيسة قال الفيلسوف والشاعر الفرنسي فولتير: " إن الشعب يعد حيوانات دون الانسان مرتبة، ولذا كان من المستبعد أن يشترك الشعب في الحكم، والعوام الذين يحسبون اراذل ويعتبر عملهم ودمهم ملك سادتهم الاشراف ... وأنهم من البهائم التي تباع وتشترى مع الأرض. (فولتير، ص73) هذا مستوى العيش في اوربا، وقيمة الانسان، وهذا نتيجة تعاون الكنيسة مع النبلاء، فالكنيسة هي التي تشجع على العبودية او استعباد الشعب. فالإسلام كان يرفض العبودية بهذا الشكل، بل يدعو الى إعتاق الرقاب، وهو تكفير عن الذنوب.

قال برتراند رسل: "إن العرب أكثر تقديرًا للبحث العلمي، اذ اعطى الامبراطور البيزنطي للخليفة العباسي نسخة حوالي سنة 760م فترجمت للعربية كتاب لإقليدس في عصر هارون الرشيد 800م اما اول ترجمة لاتينية باقية لدينا، وهي التي ترجمها عن العربية 1120م وبعد ذلك اخذت الهندسة في التطور في الغرب (رسل، تاريخ الفلسفة الغربية ج1، ص332) طلب العلم عند العرب يشارك فيه الحاكم او الخليفة قبل العلماء، مما جعل البحث العلمي هدفًا ساميًا ويتسابق الناس ليكونوا وراقين او نساخين او علماء، إذ إن انتاجهم مطلوب والكتاب يوزن بالذهب، فتجارة الكتب رائجة.

وعن سبب التخلف في غرب اوربا، قال برتراند رسل: " إن تأثير القبائل الهمجية الغازية في الغرب، قد أدى الى هبوط المستويات العامة في الغرب، التي كانت تسود خلال عصر الإمبراطورية في كافة ارجائها، وأصبح رجال الدين الذين حافظوا على ما تبقى من علوم، جماعة مميزة تستطيع القراءة والكتابة." (رسل، ج1، ص267) هنا نجد عكس ما كان بالشرق، إذ إن امر العلم والقراءة محصور برجال الدين، والعمل على تجهيل الشعب، وكان الشعب خارج تطورات العصر. إن اختراع الطباعة وانتشار اللغات الاوربية كان المفتاح الأول للنهضة الاوربية، إذ كانت الكتب ولعدة قرون حكرًا على الحكام ورجال الدين والاثرياء (الادهمي، ص26)، وكذلك كانت اللغة السائدة هي اللغة اللاتينية، ولا يقرأها كل الاوربيين؛ لصعوبتها وقدمها، وأصبح للفرنسيين لغة وكذلك الإنكليز والالمان، وكل مجموعة عملت لغة في اوربا، اما الشعوب الاوربية فترزح تحت نير الجهل، فتعليم الشعب اخر اهتمامات النبلاء ورجال الدين؛ لأن تعلم الشعوب ووعيها يهدد سلطة رجال الدين والنبلاء، إذ تجمعت الأسباب التي تدعو للتجهيل. وابتداع الأسباب، الرياضة حرام، ودراسة العلوم حرام، والفنون حرام فهل يوجد نص في الانجيل يدعو للتجهيل وتحجيم العقل.

وقد كان اختراع الطباعة هو مفتاح النهضة الاوربية، إذ إن اختراعها، أدى الى انتشار الثقافة والعلوم في اوربا بين ملايين الناس، فالتكلفة أصبحت خمس ما كانت عليه، وكذلك تحرر الناس من احتكار الموافقة من الكنيسة على ما ينسخ ويكتب. والثقافة لم تعد احتكارًا لمن يتقن اللاتينية، وجلهم من الرهبان، فأصبحت الثقافة للجميع (الادهمي، ص23) وأصبحت العلوم تطبع باللغات الاوربية مثل: الفرنسية، والألمانية، والانجليزية، والاسبانية.

إن محاكم التفتيش قامت في اوربا من قبل سلطة الكنيسة الكاثوليكية؛ لمواجهة الإصلاحيين من الكاثوليك ومحاسبة البروتستانت، إذ أصدر البابا بولص الثالث (1542 م) مرسومًا بتعيين ستة من الكرادلة ومنحهم سلطات مطلقة، في التحقيق والحكم بالإعدام ومصادرة الأموال والاملاك والمؤلفات وقد وصلت الى التعذيب واحراق الناس احياء مع مؤلفاتهم او كتبهم (الادهمي، ص58)

وردً على ذلك فولتير بإبداء رأيه في الإسلام، 1772م فقد كانت إيجابية جدًا، إذ يرى في الإسلام ديانة حكيمة، وصارمة، وعفيفة وإنسانية ومتسامحة. (فولتير، ص137)

قال برتراند رسل حول ترجمة كتب اقليدس اليوناني الى اللاتينية: " إننا لا نملك مدونًا واحدًا لأية ترجمة، لاتينية لإقليدس قبل (بيثيوس 480م) وكان العرب اكثر تقديرًا له، إذ اعطى الامبراطور البيزنطي للخليفة نسخة منه حوالي 760 م فترجمه الى العربية في عهد هارون الرشيد 800 م وأول ترجمة لاتينية باقية لدينا هي التي نقلها عن العربية (ادلارد) 1120م ومنذ ذلك الوقت اخذت الهندسة تزدهر في بلاد الغرب" (رسل، ص332) فالعلوم والتربية والفلسفة لم تنقل من اثينا الى روما او القسطنطينية، لكن ذهبت تلك الكتب الى بغداد، الى من يقدر قيمتها في بلاد المسلمين، واستنار بها العرب ثم اخذها الاوربيون وأعادوا ترجمتها الى لغاتهم..

ويمكن أن نصل او نؤيد ما قاله ول ديورات في كتابه قصة الحضارة عندما وصف العلم في البلاد الإسلامية زمن الدولة العثمانية، وهذا الامر يمكن أن نستعيره ونعممه فهو ينطبق على التربية والعلوم في اوربا أيضًا عند سيطرة رجال الدين او الكنيسة، فقال: " اما التعليم فهيمن عليه رجال الدين الذين امنوا بأن اضمن سبيلًا لتكوين المواطنين الصالحين او الاتباع الاوفياء للقبيلة، هي ترويض الخلق لا تحرير الفكر، وكان رجال الدين قد انتصروا في معركتهم مع العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين ازدهروا أيام الإسلام الأولى في العصر الوسيط، وبعد ذلك انتكس علم الفلك الى التنجيم، والكيمياء الى الخيمياء، والطب الى السحر، والتاريخ الى الاساطير(ديورانت، ج 55، ص 9) إن هذا الامر يمكن تعميمه على كل الأديان ومنها المسيحية والإسلام فهدفه ترويض البشر، وجعلهم في حضيرة الاتباع.

وكان الصراع على اشده في القسطنطينية بين الايقونيين واللا ايقونيين (مبدأ عبادة الصور الايقونات) وانتصر مبدأ عبادة الصور وبدعم من الامبراطورة ثيودورا الوصية على ابنها ميخائيل الثالث (842-867م) بعد وفاة زوجها والتي عملت لأجله بجد لأجل نصر عبادة الصور التي عملت لأجل عقد المجمع الديني 843م في القسطنطينية، واعلن المجمع العودة الى عبادة الصور ، والى اليوم تحتفل الكنيسة اليونانية الارثذوكسية بذلك(عبدالغني، ص206).

وعلى اثر ذلك اعلن البطريرك ميثودوس Methodios(837– 847 م) عن عودة الأساقفة المنفيين، وحرص على منع تعيين أساقفة متشددين او متطرفين؛ لئلا يزيد قوة الحزب الديني المتشدد، وسياسته تلك وجدت مقاومة شديدة من المؤيدين المتحمسين لعبادة الايقونات، وحصل صراع داخل الكنيسة في القسطنطينية وانشقت على نفسها بين المؤيدين والمعارضين(عبد الغني، ص207) مما يدل على أن الكنيسة الشرقية محكومة بسلطة حاكم لا يترك الكنيسة تتصرف كما تشاء.

والتربية في العصر الوسيط وبعد انتشار المسيحية تغيرت لها النظرة كما قال فيها الدكتور ماهر القيسي: "فقد أصبحت التربية تهدف بالدرجة الأولى الى التأكيد على الدين وممارسة الطقوس الدينية، فأصبحت مهمة التربية اعداد الأطفال وتهيئة اذهانهم لتقبل الأفكار المسيحية والانسلاخ عن مباهج الحياة الدنيا، واهملت النمو الجسمي والفكري للفرد، وأصبحت التربية بيد رجال الدين، وأصبحت سيطرة رجال الدين مطلقة على الافراد، وترسم على جميع الافراد الحدود التي عليهم ان لا يتجاوزوها، في الفكر والعقيدة والعمل..... هكذا أصبحت التربية نظامًا قاسيًا، يهيئ لحياة مقبلة تنظر الى كل ما يتصل بأمور هذه الحياة، نظرة احتقار وازدراء، ولقد عدت كل عناية بنمو الشخصية، الفردية وكل نشاط فكري خطيئة كبيرة" (القيسي، ص37– 38) إن النظرة للتربية أصبحت سوداوية، وكل من يبحث عن العلوم اصبح مطاردًا او مطلوبًا، وهذا يكفي لأن يترك الجميع البحث، بعد أن كان طلب العلم في اليونان يتفاخر فيه الجميع، والتربية فيها متوازنة، إذ التربية العقلية والروحية والجسدية تعطى للطالب، فينمو انسانًا متكاملًا.

روما بعد وثيقة قسطنطين

كانت الدولة الرومانية في اوج عزها أيام كان يحكمها الاباطرة الرومان، ولكن بعد أن تركها قسطنطين وانشأ عاصمته الجديدة، بقيت روما حرة، إلا أن البابوية ادعت امتلاكها، فقال الفيلسوف الإنكليزي برتراند رسل في كتابه حكمت الغرب: " في غياب سلطة سياسية مركزية، أصبح لدى البابوية من القوة اكثر مما كان للكنيسة الشرقية، في ميدانها الخاص، وأن الاستيلاء على رافينا لم يكن صفقة قانونية بأي معنى، وقد عمد بعض القساوسة لكي يضفي مسحة من الشرعية على تلك العملية، الى تزوير وثيقة أصبحت تعرف (بمنحة قسطنطين) ويفترض أنها مرسوم من قسطنطين منح بموجبه الى الحبر الأعظم جميع الأقاليم التي تنتمي الى روما الغربية، وبناء على هذا النحو استقرت السلطة الزمنية للباباوات، وضلت قائمة طوال العصور الوسطى، ولم يتم كشف التزوير إلا في القرن الخامس عشر.(رسل، ص268) إن هذا يعطينا صورة عن أن المصالح الدنيوية كيف تجعل رجال الدين الذين نتصورهم يتشبهون بالملائكة إن لم يكن بالإلهة، ولا نتصور أنهم يزورون ويتلاعبون، مثل البشر السيئين؛ لأن هناك ناس عاديون ولكنهم شرفاء ولا يزورون.

وعن تبادل المصالح او المنفعة بين الباباوية والحكام او الملوك، رأى رسل ان شار لمان نفسه الوريث الشرعي للإمبراطورية الغربية، ولذلك توّجهُ بابا روما كإمبراطور في يوم عيد ميلاد المسيح سنة 800 م، وعدّ يوم تأسيس للإمبراطورية الرومانية المقدسة للعنصر الجرماني. وتتويج امبراطور غربي يعدّ استكمالًا للانفصال عن الدولة البيزنطية، وتتويج شار لمان جاء بحجة واهية، والحجة أن العرش البيزنطي تجلس عليه امبراطورة وهي ايرين، وعدّه شاغرًا، وبعد تتويج البابا عدّ نفسه خليفة القياصرة، وأصبح الارتباط وثيقًا بين البابا والاباطرة، إذ لابد من تصديق البابا على تعيين الامبراطور، ووضع التاج على رأسه، حتى في حالات بعض اباطرة أوربا الأقوياء الذين كانوا يعينون ويعزلون الباباوات. (رسل ، ص270) فالأمر هنا تبادل منفعة أيضًا فالإمبراطور يعين البابا، والبابا يعطي تتويجًا وشرعية للملك.

القسطنطينية: هي المدينة التي بناها الامبراطور الروماني قسطنطين ونسبت اليه، وأكد برتراند رسل أن القبضة القوية للإمبراطور في الدولة البيزنطية، مما صبغ الدولة بصبغة أكثر علمانية من الدولة الرومانية الغربية. (برتراند رسل حكمت الغرب، ص266) الدولة البيزنطية كانت أكثر تفاهمًا مع المسلمين واقل عدائية من روما المحكومة برجال الدين. وحتى الحروب الصليبية كانت بدفع من كنيسة روما الغربية، وكان حكام القسطنطينية غير متعاونين مع الحملات الصليبية. وهي الوريث لروما في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، كان فيها رجال دين ولكن الحكم للامبراطور، في الأمور السياسية.

ازدهار التربية والعلوم في البلاد العربية الإسلامية بعد الاسلام

من الجدير بالذكر أن الإسلام في بداياته، لم يكن بين المسلمين رجال دين ، بل إن لكل المسلمين اعمالًا يختصون بها، وعمله في الدين عمل تطوعي لوجه الله، حتى الخلفاء هناك من كان يعمل في التجارة او غيرها، ولم يكن بينهم عاطل عن العمل ومهمته في العمل الديني مهمة إضافة للعمل الاساسي، وفي الحديث الشريف لا رهبانية في الإسلام فعندما جاءت امرأة عثمان بن مظعون الى النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقالت: يا رسول الله إن عثمان يصوم النهار ويقوم الليل، فخرج رسول الله مغضبًا اليه، فوجده يصلي، فانصرف عثمان حين رأى الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) فقال له رسول الله: يا عثمان لم يرسلني الله تعالى بالرهبانية، ولكن بعثني بالحنفية السهلة السمحة، اصوم واصلي وألمس اهلي، فمن احب فطرتي فليستن بسنتي (الكليني، 494/5) إن الإسلام دين عمل وعلم والعيش حياة طبيعية تقوم على التوازن بين الحياة الروحية والمادية، حياة متوازنة.

لقد جاء الإسلام ثورة على ما قبله في أمور التربية والتعليم وطلب العلم، فكان دافعًا للمسلمين ليجعل طلب العلم مباحًا، بل وواجب ديني وذلك استنادًا الى الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، فنجد عدة آيات تدعو لطلب العلم (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم) (1-العلق) إن الآية الكريمة امرت بالقراءة دعوة للتعلم.. وفي بيان فضل العلم والتعلم في قوله تعالى:(قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (الزمر، اية 9) وقال (صلى الله عليه وسلم) في الأحاديث الشريفة التي يدعو لطلب العلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وصيغة الامر في الحديث الشريف (اطلب العلم من المهد الى اللحد)، ثم (ولا خير فيمن كان من امتي ليس بعالم او متعلم)، و(مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة). من يقرا هذه الآيات والأحاديث يجد أن الإسلام فيه تسامح ودعوة للعلم والتعلم، فالعلم هدف ديني او عبادة لوجه الله، فضلًا عن فوائده العملية للمتعلم في الحياة، فإذا كان طلب العلم فرضًا على كل مسلم ومسلمة ودعوة لطلب العلم من المهد الى اللحد، يعني بالمفهوم الحديث إلزامية التعليم وتعليم الكبار، او محو الامية، فالدول التي طبقت إلزامية التعليم في القرن العشرين، الإسلام سبق بفرضها قبل 1400 سنة دينيًا، عندما جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة في الحديث الشريف.

وحتى جواز اخذ العلم من غير المسلم او ما عدّوه كافرًا، فالنبي محمد(صلى الله عليه وسلم) حينما اسر المشركين في معركة بدر، فعلى الرغم من حاجة المسلمين للفدية المالية، إلا أنه طلب من كل اسير أن يعلم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة، مقابل فك اسره، وهنا فضّل العلم على المال.

إن هذا الامر جعل طلب العلم شيئًا مشروعًا بل هو واجب ديني ودنيوي وفرض، وهذا الفرض على الرجال والنساء، فرض على كل مسلم ومسلمة، وطيلة العمر، غير محدود طلب العلم بعمر محدد، هذا من الجانب الديني.

قال زيغريد هونكة: "إن اهم عوامل انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم، حتى إن الملك الفارسي كيروس Kyros نفسه قال: (إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين) فما يدعيه البعض من تعصب العرب والوحشية إن هو إلا مجرد اسطورة من نسج الخيال، تكذبها آلاف الأدلة القاطعة عن تسامحهم وانسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة. (زيغريد هونكة، ص359) فالتسامح والانفتاح على الاخر، حتى الأعداء في ذلك الزمن وترجمة كتبهم.

ونجد أن زيدغريد هونكة قد وصفت عمرو بن العاص بفاتح الإسكندرية، والذي ضرب المثل بتسامحه على طول حقبة الفتوحات التي قادها، ومن الأمور المحرمة لديه السلب والنهب وتخريب الممتلكين من قبل جنوده، وهذا العمل يعد غريبًا وغير مفهوم من اهل الشرق من مسيحيين وغيرهم، مما يضمن –بشكل صريح– الحرية للمغلوبين في ممارسة الشعائر الدينية المتوارثة لديهم.

إن منصب الخليفة في الدولة العربية الإسلامية نظريًا هو منصب ديني اكثر من كونه منصبًا سياسيًا، وواجبه الأول الدفاع عن الإسلام، لكن نجد أن الخليفة لم يكن كما القساوسة او البابا في الغرب، فلم يكن بمقدوره اصدار قرارات فردية في شؤون الدين، على الرغم من أن الظاهر سلطته لا يحدها مجلس ديني او برلمان او اية طبقة وراثية او دينية، ولكن يحد سلطته نص (القران الكريم) وعندما تغلب العرب على مجتمعات واسعة في العراق وفارس والشام ومصر، فاستعانوا بالنظم السابقة في الإدارة، وتركوها كما هي، النظام الفارسي والبيزنطي(ديورانت، ج21، ص172)

وأكد ول ديورانت أن البلاد في غرب اسيا الواقعة تحت حكم الإسلام، قد وصلت درجة رخاء صناعي وتجاري لم تبلغها اوربا الغربية قبل دخول القرن السادس عشر. ودخلت الجمال (سفينة الصحراء) (إضافة إلى البغال والحمير) كوسيلة نقل استراتيجية، وكانت القوافل يصل عددها الى آلاف الجمال، وتقطع الطرق من بلاد الصين الى البصرة وبغداد ومكة ومصر والمغرب، وبنيت الخانات والمضايف وصهاريج الماء على الطرق (ديورانت، ص134) إن الحركات التجارية العظيمة هذه لن تتم من دون دولة قوية تنشر الامن وتشق الطرق وتقدم الخدمات وتحاسب اللصوص.

وفي وصفه للعرب ومقارنتهم مع المسيحيين، وهو يعدّ من الطرف الاخر، قال ديورانت: "كان العرب حين فتحوا بلاد الشام قبائل قليلة الحظ من المدنية، شجعانًا الى درجة التهور، كثيري العنف سريعي الانفعال متشككين، وكان الإسلام قد خفف من حدة كل تلك الصفاة. وما يحدثنا عنه المؤرخون عن ضروب القسوة التي يرتكبها بعض الخلفاء لم يكن يزيد في مجموعة على ما كان يرتكبه الملوك المسيحيون والبيزنطيون، والمورفنجيون واهل الشمال ..... ويكمل ديورانت: من المألوف فإن المسلم كان مثالًا للتسامح والإنسانية، وإذا وصفنا أواسط الناس سريع الفهم، حاد الذكاء سريع التهيج، يسهل ادخال السرور الى قلبه، والمرح على نفسه، يجد الرضا بالبساطة ويصبر على بلواه بهدوء، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر وكرامة وشمم وكبرياء (ديورانت، ج21 ص170)

وما يبين أهمية العلم والعلماء عند المسلمين، كما يحسب الغرب اليوم أهمية العلماء ويستقطبهم. أكد ول ديورانت أن أعظم العلماء البيزنطيين في الثلاثة قرون هو ليو السالونيكي، كان معلمًا خاملًا ذكره، ولم تهتم القسطنطينية لوجوده، حتى دعاه المأمون (786–833م) أحد خلفاء المسلمين الى بغداد. وجاء ذلك لأن أحد تلاميذ ذلك العالم اسره المسلمون، وأصبح عبدًا في قصر المأمون، أعجب المأمون بهذا التلميذ ومعرفته بالعلوم، واستمع بشغف لما قاله عن أستاذه ليو، وأرسل المأمون يدعو ليو السالونيكي للعمل وجاه واثراء في بغداد، ولكن ليو استشار موظفًا حكوميًا الذي أوصل الخبر للإمبراطور البيزنطي ثيوفليس فعينه امبراطوره أستاذًا، وعرض عليه المأمون مسائل في الهندسة والهيئة وفرح لإجابته فعرض المأمون على ثيوفليس امبراطور بيزنطة صلحًا أبدى ودائم والفا رطل من الذهب، إذا ما تم اعاره ثيوفليس الى اجل قصير، ورفض ثيوفيليس

ما عرض عليه وتم تعيين ليو كبير أساقفة سلانيك ليتم ابعاده عن اغراءات المأمون (ديورانت، ج24، ص40) إن تطور الدولة العربية سببه أن الحكام العرب كانوا يطلبون العلماء ويدفعون لهم بسخاء؛ لإرضائهم وجلبهم، وهذا لم يكن في روما في ذلك العصر، ولا في بلاد العرب اليوم؛ لأنهم في جهل كبير، ولكن هذا الفعل في دول الغرب اليوم، إذ إن كل عالم له أهمية، يدفع له ما يريد في الغرب؛ لسحبهم الى هناك.

وأكد برتراند رسل أن الاسرة الاموية الحاكمة كانت تعارض التعصب، والدوافع على العموم عند العرب لم تكن متطرفة، والدوافع المادية دورها بارز في التوسع، وساعدهم عدم الميل للتطرف الديني، على أن يحكموا على الرغم من قلة عددهم، مناطق واسعة وذات تاريخ وحضارة (برتراند رسل، حكمت الغرب، ص282-283) إن التعصب لم يكن موجودًا لدى العرب والمسلمين وهذا ما سنوضح سببه لاحقًا.

أما انتشار التراث الديني النسطوري، فكان للعرب اول اتصال بالتراث والمعرفة اليونانية، بعد اغلاق امبراطور بيزنطة زينون المدرسة الموجودة في اديسا Edessa 481م (رسل، ص284)

رأى برتراند رسل أنه ليس من الخطأ وصف تلك القرون بالمظلمة، وذلك اذا ما قورنت بالعصور التي سبقتها، وما جاء بعدها، يجدر بنا أن نذكر أن الإمبراطورية البيزنطية الشرقية لم تشارك بقدر الإمبراطورية الغربية في روما في حصول التراجع الكبير للعلوم والتربية في اوربا؛ لأن سلطة الامبراطور قوية، وجعل ذلك التعليم مصطبغًا بصبغة علمانية، بصورة اكثر مما كان سائدًا في غرب اوربا الواقعة تحت سلطة الكنيسة الغربية، ففي الوقت نفسه كانت الحضارة الإسلامية الفتية ذات القوة قد شملت سيطرتها من الهند والصين شرقًا الى خراسان والعراق والشام ومصر وافريقيا وحتى اسبانيا تصل الى قمة الرقي الحضاري.(رسل، ص266) مما يدل على إن العصور المظلمة حصلت في الدولة والعصر الذي كانت فيه سلطة الكنيسة هي الأولى، أي: سلطة رجال الدين، في تلك الحقبة تم اطلاق سلطة الكنيسة، واختزال او مضايقة انهاء سلطة العلم والعلماء.

العرب واضعوا البحث العلمي على الطريق الصحيح، فبعد أن كان منهج المنطق الارسطي او البحث النظري هو السائد، جعلوا البحث التجريبي هو الأساس قبل فرانسيس بيكون.

قالت زيغريد هونكة، المؤرخة الألمانية: "لو لم يبعث الشعب العربي الموهوب في حضارات البحر المتوسط روحًا جديدة، لاندثرت كما حدث لحضارات المايا Maya الانكا Inka"(زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب،ص359) وقالت أيضًا في صفحة أخرى: " إن العرب لم ينقذوا الحضارة اليونانية من الزوال بعد تنظيمها وترتيبها فحسب، بل إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر وحساب المثلثات، وعلم الاجتماع، فضلًا عن عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية المختلفة التي سرق بعضها ونسب لآخرين، وثمن هدية قدمها العرب هي طريقة البحث العلمي الصحيحة، التي مهدت الطريق

امام الغرب لمعرفة اسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم"(هونكة، ص401–402) والعرب لم يكونوا فقط من انقذوا الحضارة اليونانية من الضياع، بل إنهم مبدعون في البحوث التجريبية، وصناعاتهم الجديدة ، فأصبحوا منقذين للعالم .

وفي العالم الإسلامي كان انتشار تراث النساطرة كبيرًا، إذ كانت بداياته من اتصال العرب بالعلوم والمعرفة اليونانية، وسبقهم بلاد الفرس كذلك، بعد أن اغلق امبراطور بيزنطة مدرسة اديسا Edessaسنة 481م (رسل، ص284) فهو في الأصل تراث اليونان العلمي اغلق بوجهه الاستمرار في روما او بيزنطة، لرجال التربية والعلوم والفلسفة الى الدولة المنافسة في ذلك الوقت، وبعد أن أغلقت أبواب البحث العلمي عندهم، ذهبوا الى بلاد فارس، وبقيت تلك الكتب والعلوم، الى أن جاء العرب الذين أحسنوا من استحصال تلك العلوم.

اما الاب الدكتور جورج شحاته قنواتي فأكد: عندما فتح العرب دمشق كان عهدًا بينهم وبين مواطنيها، على إبقاء خمس عشرة كنيسة، ولهم حريتهم في العبادة. حتى إن كنيسة اليعاقبة باقية في عملها مجاور قصر الخليفة. حتى في خلافة هشام بن عبد الملك، ونجد كبار رجال الدين المسيحي يعيشون في عهد العرب في دمشق، مثل: القديسين سوقرنيوس، (550–638 م)، و اندرواوس الأقريطي (660– 720م)، ويوحنا الدمشقي، والمسيحي المفضل لمعاوية وطبيبه ووزير أموال معاوية، والمربي لأخيه والشاعر المفضل في ديوانه الاخطل.(قنواتي، ص139–140).

ومن صور الرفاه والترف لدي المسلمين، أكد ول ديورانت أن الاتراك كانوا فخورين بحماماتهم العامة، وهم يحسبون أنفسهم شعب نظيف وأنظف من المسيحيين، (ول ديورانت، قصة الحضارة، ج55، ص12) هذا الامر لم يكن معروفًا إلا في الزمن المعاصر، عرفت اوربا النظافة والاستحمام.

وأكد احمد هيكل أن أبا القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرني 180 – 274هه / 796– 887م الذي عاصر ثلاثة من الامراء: الحكم بن هشام، وعبدالرحمن بن هشام، ومحمد بن عبدالرحمن، مارس نشاطاته الفكرية والعلمية، واجرى تجاره في جو من الحرية التي لم تتوافر في غير ذلك العصر، ويعد من عباقرة الاندلس وافذاذها(سوادي، ص153) وللعربية اليوم اثر كبير في غالب اللغات الاوربية، فكثير من الأسماء العربية والفارسية او الصينية انتقلت الى اللغات الاوربية بالتواصل مع العرب، وبعض المصطلحات العلوم والزراعة، كيميا، زيتون، لوبيا–جرار وغيرها، وأسماء كثير من العلماء العرب موجودة اليوم في اوربا، اما هذا الشخص وعلمه فيدرّس في مدارس أوربا، وهذه الأسماء تغير سياقها وأصبحت لها معناها في تلك اللغات، مثل: ابن رشد وابن سينا والحسن بن الهيثم، والخوارزمي اعطى كلمتين، (الا لغورتم)تصحيف لاسمه وللجبر(بركة، مجلة العربي، ص130) هؤلاء العلماء العرب.

وصورة الكتب واهميتها عند العرب، قالت زيد غريف هونكة: "إن عشق الكتب لدى العرب لم يكن وقفًا على مجموعة حفنة من العلماء، بل كان هواية العرب على اختلاف طبقاتهم، فكل متعلم من اكبر كبراء الدولة الى بائع الفحم، ومن قاضي المدينة الى مؤذن المسجد، وهو زبون دائم عند بائع الكتب، وكانت تحويه مكتبة خاصة، لعربي في القرن العاشر، كان اكثر ما تحويه كل مكتبات الغرب مجتمعة.(زيد غريف هونكة، شمس العرب، ص388) إن هذه شهادة من كاتبة غربية ألمانية تدل على مدى الثقافة وطلب العلم الذي انتشر لدى العرب، وهذا الشائع لدى الشعب، هو طبعًا بدا تقليدًا لما يفعله الحكام المسلمون، فالشعوب على دين ملوكها، وطالما الحاكم يكرم العلماء والمترجمين والفلاسفة، وتوزن الكتب بالذهب، فالكتب أصبحت تجارة رائجة، ولكن عندما احرق الحكام كتب الفلاسفة، وتم مطاردة الفلاسفة وأصحاب الفكر، ماذا جرى للفكر؟؟ تم تحجيمه.

اوربا ومحاكم التفتيش

وللكنيسة فلسفتها في تفسير جريمة الالحاد في اوربا والخروج على سلطة الكنيسة، عدّت أن الملحد المسيحي في اوربا شره اكثر من المسلم اليهودي، إذ إن هؤلاء يعيشون ضمن المجتمع المسيحي وهم تحت نظام صارم، ومسيطر عليهم، والملحد يعدّ خائنًا يختبئ داخل المجتمع ويهدم المجتمع بفكره من الداخل، ويصعب السيطرة عليه، وحصرت الكنيسة تفسير نصوص الكتاب المقدس فقط على رجال الدين.(د محمود سعيد عمران، حضارة اوربا، ص322) ونجد عكس ذلك في بغداد أيام مجدها، حيث الحرية تلك ابدع فيها غير المسلمين في الطب والترجمة والإدارة حتى وزراء وحجاب ومصرفيين، وكانت تعقد مجالس النقاش في بغداد يتجادل فيها المسلم والملحد واليهودي والمسيحي والزرادشتي والما تريدي، وكل واحد له الحق أن يثبت صحة عقيدته في حوار مفتوح، فلم تعد الحجج والآيات والاناجيل المنزلة وسيلة اثبات، بل الحوار ولو كان الطرف الاخر يؤمن لآمن بذلك الدين، فكانت الحاجة لأدلة عقلية، فذهب المسلمون وغيرهم لإثبات معتقداتهم عبر ترجمة فلسفة اليونان ونقل حجج ارسطو وغيره في اثبات مثلًا في قول ارسطو أن لابد أن يكون للعالم صانع، او محرك لا يتحرك ولا يجري عليه الكون والفساد، مما ما يدعم القرآن والرأي الإسلامي بوحدانية الله امام الثالوث المسيحي وحجج عقلية.

وأكد د محمود سعيد عمران أنه في عام 1114م تم القبض على عدد من الملحدين قرب سواسون الفرنسية وتم وضعهم في السجن من قبل الأسقف في تلك المدينة، وعندما خاف الأهالي ان تتساهل الكنيسة مع الملاحدة هجم الأهالي واخرجوهم من السجن واحرقوهم، والحرق كان سائدًا، إذ إن الكنيسة قد تعاونت مع الحكام في السيطرة على الشعب، وكان يخشى الحكام السيطرة على الناس دون مساعدة الكنيسة، إذ تعاون الاباطرة والملوك مع الكنيسة على مطاردة أصحاب الرأي المخالف للكنيسة او من يكون لديهم تساؤل، وخاف

الحكام بعد التطرف الديني تطرف في السياسة، وخروج على الحاكم. وفي 1194 امر الامبراطور الألماني هنري السادس (1190–1197) بمصادرة أملاك وإنزال اشد العقوبات بما يطلق عليهم بالهراطقة او من لهم رأي او تساؤل. وكذلك فريدرك الثاني (1212–1250) أصدر عقوبات بمصادرة أملاك تستتر خلف الغيرة الدينية ولكن القصد الاستحواذ على الأملاك لصالح الدولة، وحتى إن تابوا ورجعوا يمنعون وحتى ورثتهم من املاكهم.

وعلى الرغم من كل التشدد زاد عدد الملاحدة او الهراطقة وهم كل من تساءل عن موضوع ديني، وقد حصرت الكنيسة التفسيرات الدينية رجال الدين. وأصدر البابا انوسنت الثالث امرًا لكل الحكام أن يؤدوا القسم بإبادة كل الهراطقة القاطنين في ارضهم، وكل من لا يفعل ذلك يصبح الحاكم في حكم الهراطقة ويخلع من الحكم. وحرم على كل الشعب مناقشة أمور الدين والعقيدة وهذا الامر من اختصاص الكاثوليك من رجال الدين.

والامر فيه التفاف بالألفاظ والمحصلة واحدة، إذ إن المتهمين الذين تأتي بهم لجان التفتيش من وقت لآخر يقسمون الى ثلاثة مجاميع، الأولى: من يعلنون توبتهم ويعفى عنهم، والثانية: هم المذنبون الذين سيسلمون الى السلطات المحلية، ولهم يوم واحد كي يعلنوا توبتهم، حتى ولو قبل الحرق، وهم تصادر املاكهم ويحكمون بالسجن مدى حياتهم، اما المجموعة الثالثة فهم المتمسكون برأيهم، ويتم حرقهم احياء في ميدان عام. وهنا كل اعدامات رجال الدين حرقًا، لماذا؟

إذ إن رجل الدين المسيحي لا ينطق بحكم الإعدام بحجة أنهم لا يريقون الدماء. وكأن الاعدام سفك للدماء، والحرق غير ذلك، وليس أكثر قسوة، والموضوع اظهار صورة حسنة لأفعال رجال الدين.

(ينظر: د محمود سعيد عمران، ص322–323) إذا اتحد الحكام مع رجال الدين لأحكموا السيطرة على الشعب. وهذه الأمور لم تكن موجودة في الدولة الإسلامية.

أوربا في عصر النهضة وما بعده

قال ارنولد توينبي: "إن التساهل الديني الذي دخلت فيه المسيحية الغربية في النصف الثاني من القرن السابع عشر، حيث ترجع اصوله فيها كثير من السخرية، فهو لا يمكن تسميته تساهلًا دينيًا، إلا بمعنى أنه كان تساهلًا او تحللًا في الديانة، بل إننا إذا ما نظرنا الى بواعثه، فيكون الاجدر به أن يسمى (تساهلًا لا دينيًا) ففي تلك الحقبة التي دامت نصف قرن، تخلت فيها العصبتان الكاثوليكية والبروتستانتية عن تناحرهما وتنازعهما فجأةً. ليس لأنهما امنتا بإثم التعصب، بل لأنهما أدركتا أنه لم تستطع أي من الطائفتين أن تمضي

في احترابها مع الأخرى، وفقدتا الحماسة والاهتمام بالمسائل اللاهوتية، .... وصارتا تعدان الحماس الدينية رذيلة، ويمثل وصف أحد الأساقفة الإنكليز في القرن الثامن عشر بعثة تبشيرية بكونها (متحمسة تعسة "(توينبي، ج1، ص434) وعلى ذلك رأى توينبي أيضًا أن التساهل مهما كانت دوافعه، فهو العلاج الشافي للتعصب، مهما كانت الدوافع، إن الدين او الدوافع والتعصب يولد الشر، إذ عبر لوقريشوس عن بشاعة الشر، إذ إن راي لوقريشوس وفولتير في أن الدين شر ويقصدون إذا اسيء توظيفه من قبل رجال الدين، ويمكن الاستشهاد بالمجتمع الهندي والهندوسي في ذلك، والنتائج السيئة التي حصلت نتيجة للنظام الطائفي. (توينبي، ص435) إن غالب الأديان بحد ذاتها ليست شرًا بل تدعو للسلام والتسامح.

والخروج على طائفية الهندوسية جاءت بصورة احتجاج ثم انشقت وخرج ناس منها وذلك بجذب ديانات أخرى اجنبية، إذ وجدنا اصلاحيين هندوس قد اسسوا مذاهب جديدة، تدمج الهندوسية بديانات أخرى، نجد ناناك 1469– 1538 م) قد أسس الديانة السيخية في الجمع بين الإسلام والهندوسية، وكذلك وضع رام موهان روي (1772– 1832م) دين براهما سيماج والناتج عن دمج الهندوسية مع المسيحية وهم تركوا الهندوسية؛ لبشاعة الأساس الديني هو التنجس (توينبي، ص437) إن الفكر الهندوسي الديني، حاول تغيير الديانة الهندوسية وفق الديانات المتأثرين بها.

ويجدر بنا أن نذكر ما جرى على بقايا العرب من الاندلسيين، ففي سنة 1566م فرض أن يتعلموا ويتكلموا باللغة الاسبانية، وأن يتخلوا عن جميع كتبهم العربية، وتم احراق المخطوطات العربية من قبل رئيس الأساقفة شمينس ، وقدرها ثمانون ألف كتاب، واعتقد أنه يمحو ذكر العرب، ولكن ما تركه العرب من تاريخ يملأ المدن الاسبانية، وهو يكفي لتخليد ذكراهم ومنعوا من التحدث بالعربية او الكتابة بها حتى داخل بيوتهم. حتى تم منع العرب من الاستحمام، وهدم الحمامات العامة في المدن العربية المشهورة بالحمامات، (مظهر، ص56– 57).

الحضارة الاسلامية وتأثير القوى الدينية

كان تأثير رجال الدين المسلمين حتى القرن الرابع للهجرة اقل من تحكم وسيطرة الكنيسة ورجالها في اوربا حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وكما مر ذكر ذلك سابقًا، السلطة كانت للخليفة، هو يمثل السلطتين الدينية والدنيوية. فرجال الدين في جوامعهم واماكنهم، ورجال الحكم في أماكنهم، وحتى إن استلم من يمثل الدين الحكم كما في حالات كثيرة، كانت السلطة للدولة، فالسلطة للخليفة وهو يمثل السلطتين الدينية والدنيوية من دون أن تطغى احداهما على الأخرى، التي تمثل مصلحة الشعب عمومًا، وبنظرة كلية ابوية، كل الشعب وكل بحسب دوره المحدد حتى وإن كان غير مسلم له حقوق وعليه واجبات وفق قوانين ذلك الزمن. فازدهرت الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

والحكام في ذلك الوقت لأنهم من قريش سواء الامويين او العباسيين، فذلك يمنحهم قبولًا لدى جمهور كبير من المسلمين، ولهم سلطة الدولة، وخطبة الجمعة التي تمثل صوت السلطة الدينية، التي يؤدي في الولاء والدعاء للحاكم في كل الامصار الإسلامية.

والانحطاط الفكري في الدولة الإسلامية كما أكد غايتان بيكون" في 1169م طلب الخليفة ابو يعقوب بن يوسف الفيلسوف احضار ابن سينا، وكان ابن سينا في البداية شديد القلق، ولكنه عرف أنه والخليفة يتشاركان الكثير من الأفكار الفلسفية الجريئة. واخذ في تفسيره لأرسطو، بحسب طلب أبي يعقوب. ولكن خلفاءه ومنهم المهادي أبو يوسف يعقوب الثالث، قد استحق لقب (المنصور الظافر) وذلك بعد النصر في معركة الاركوس سنة 1196م فلأجل الانتصار في تلك المعركة احتاج الدعم الروحي، من القوى الدينية، فاقترب من الفقهاء، ونتيجة لذلك نفى ابن سينا ولو بشكل مؤقت، واحرقت كتبه، مثلما قام المرابطون بإحراق كتب الغزالي. وقد نكل بالفلاسفة وكل أصحاب الفكر الحر والصوفية (بيكون، ص671) إن التدهور في العلوم لابد أن يكون له سبب او مجموعة أسباب، فالعلوم كانت تدعم وينفق عليها من المرابطين او الموحدين، ولكن عندما تحارب العلوم من القوتين في الغرب الإسلامي يحصل الانهيار في العلوم والتربية، قال غايتان: " إن هاتين المدرستين كانتا تشكلان القوى الحية للمدنية الإسلامية في ذلك الزمن، فكانت كل واحدة تشكل توازنًا مع الأخرى الموحدية والمرابطية، فأتاحتا مجالاً للتقدم، إن إلغائهما أدى الى ظهور مدرسة الثقافة الحية، فقد هاجرت الفلسفة الى اوربا."(بيكون، ص672).

إن البلاد الإسلامية حتى وإن مرت بحقب مظلمة او فوضى ولكنها لم تصل الى ما وصلت إليه في اوربا، إذ تجد في كل مدينة إسلامية يعيش فيها مسيحيون او يهود او مجموعات أخرى، متجاورون يعيشون بسلام، مع بعض الاستثناءات، في حين أن في اوربا الامكان للمسلمين فيها، وحتى اليهود عليهم مضايقات، فهذا الرحالة الدنماركي نيبور ذكر حال المسيحيين في الموصل، إذ قال: " إنهم هنا يعيشون سعداء وعلى وئام تام مع المسلمين، ولهم الحق أن يلبسوا كما يلبس المسلمون، وكثيرًا منهم يعملون في خدمة الباشا،(والي الموصل) "(نيبور، ص114).

وكذلك يتحدث نيبور عن اليهود في الموصل، وأنهم يتمتعون بحرية واسعة في الدولة العثمانية، وأن لهم الحق في العمل وكسب القوت اليومي افضل مما في اوربا التي فيها مجال الارزاق مسدود في وجوههم في اوربا.(نيبور، ص144) وعن علاقة اليهود بالنصارى في الموصل فوصفها بأنها سيئة، إذ إن المناطق التي يكثر فيها المسيحيون لا يجرؤ اليهود على أن يظهروا في الأماكن العامة، ولا يخرجوا للشوارع أيام السبت او الأعياد الخاصة بهم، ويبقون في بيوتهم؛ لئلا يلحقهم صبيان المسيحيين، ويرمونهم بالأحجار، ويتجنبون الشكوى لدى رؤساء المسلمين.(نيبور، ص144) البلاد الإسلامية يتعايش فيها الجميع، حتى وإن ظهرت بعض الخلافات، ولكنها لا تقاس بما كان في البلاد الاوربية من تشدد مع المسلمين او غيرهم.

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

الخاتمة:

1- ان هناك عملية ترابط وتناسب بين سيطرة الكنيسة او رجال الدين والتطور العلمي، فنجد التدهور في اوربا بعد سيطرة الكنيسة، وازدهار الشرق في اثناء قوة الخلافة، وازدهار اوربا بعد التحرر من سيطرة الكنيسة، والتدهور بالشرق بعد ضعف الخلافة وسيطرة رجال الدين، هذا التناسب العكسي، والمشكلة في السيطرة وتسخير مقدرات الدولة لتحقيق سيطرة رجال الدين، ولا ينظرون للأمور نظرة شمولية من خدمة الدين وذلك بخدمة الدولة. بل تسخير الدولة لخدمة الطائفة او الدين او المجموعة البشرية، ويعطون الفتاوى بتسخير وتحليل أموال الدولة. فيحصل خلل في عمل الدولة ككيان يعمل متكامل اجزاؤه.

2- من الخطأ أن نطلق العصور المظلمة على القرون الوسطى للتاريخ العربي الاسلامي، إن العصور المظلمة هي مصطلحات اوربية، وتنطبق على التاريخ الاوربي، والحالة التي كان عليها، قياسًا على ما قبلها وما بعدها وما جاور أوربا مثل الدولة الإسلامية في تلك المدة، صحيح أنها حقب مظلمة في أوربا، ولكنها حقب علم وتنور وتقدم في الدولة العربية الإسلامية، سواء في الاندلس او المشرق العربي والوصف الذي ينطبق على أوربا في زمن ما، قد لا ينطبق على غيرها، وذلك مثلما نطلق على منطقة الشرق العربي منطقة الشرق الاوسط وهو مصطلح اوربي، يصف حالة المكان قياسًا على أوربا. فتصور أن الذي يتحدث يجلس في أوربا ويقسم العالم شرق أدنى وأوسط وغرب وجنوب، وكل المصطلحات تصور من يتحدث، يقيس ويقسم العالم قياسًا على أوربا، اما التسميات العربية، الشرق الأوسط فهو المشرق العربي، ومن يجلس في المشرق العربي، فأين الشرق الأوسط بالنسبة إليه، والشرق الأدنى.

3- أفضل أنواع التربية هي التربية اليونانية الأثنية وذلك نتيجة للحرية في التربية، وتناول التربية بكل حرية في اول بلد أصبح الصراع بالكلمة بدل السيف، في اول ديمقراطية عرفها التاريخ، وكانت المناهج محببة الى نفوس الطلبة، إذ إن ثلثاها رياضة وموسيقى والثلث الاخر للرياضيات والعلوم.

4- إن سيطرة الكنيسة الغربية وانعدام سلطة الدولة بعد وثيقة قسطنطين، أصبح الناس في اوربا الغربية من إيطاليا وفرنسا واسبانيا وانكلترا، ومصيرهم محصور بين الكنيسة والملك والنبلاء، فالملوك تنصبهم الكنيسة، بعد موافقتها، والملك الذي يخالف الكنيسة لن يحصل على التتويج والشعب اقنان يباعون بين النبلاء مع الأرض، وكما رأينا في تعمد الكنيسة إشاعة الجهل؛ لدوام السيطرة، قال فولتير: " إن الشعب يعد حيوانات دون الانسان مرتبة، ولذا كان من المستبعد أن يشترك الشعب في الحكم، والعوام الذين يحسبون اراذل ويعتبر عملهم ودمهم ملك سادتهم الاشراف ... وأنهم من البهائم التي تباع

وتشترى مع الأرض. (فولتير، رسائل فلسفية÷ ص –73) فالأطراف الثلاثة مستفادون وبينهم تبادل منفعة. وخير دليل محاكم التفتيش (التي اقيمت محاكم التفتيش في اسبانيا على غرارها) التي كان عملها محاسبة كل من يطلب العلم او يجدون لديه كتاب فلسفة او فكر التي أقيمت واشيع الظلم وأصبحت اوربا في ظلام.

5– إن الدين الإسلامي جاء بمبادئ جديدة وثورة على ما قبله في طلب العلم، فالقرآن اول اية نزلت فيه تدعو لطلب العلم، والأحاديث النبوية التي هي بوصلة المسلم في حياته، فالحديث الشريف (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) جعله فرضًا وليس سنة، على النساء والرجال، واليوم بعض المتشددين يمنعون النساء من العلم، وهم يخالفون نص الحديث الشريف. والحديث الاخر (اطلب العلم من المهد الى اللحد) إذًا كل المجتمع عليه طلب العلم، افقي رجال ونساء، وعمودي كل الاعمار، وهو المبدأ نفسه في الحديث عن الديمقراطية في التعليم الذي يعطي الحق لكل الناس في التعليم، فالمجتمع كله مشمول بالفرض، وكان في كثير من دول العالم ولدينا في العراق إلزامية التعليم في السبعينات والثمانينات، او التعليم الالزامي وفرض بالقانون. وفي الإسلام فرض ذلك من ألف وأربعمئة سنة، فأذن الإسلام سبق عصره في النظرة المتفتحة للتعليم والعلوم. وهذه النظرة أكثر وأفضل من كثير من الحركات الإسلامية التي جاءت في التاريخ الإسلامي وأغلقت باب الاجتهاد، وحجمت العلوم وحاربت الفكر والفلسفة.

والامر الاخر هو أن الحكام المسلمين أعطوا الحرية للناس في طلب العلم والترجمة بمختلف مصادرها، ويتجادل المسلم والمسيحي والملحد والماتريدي واليهودي والصابئي وغيرهم في بغداد وبرضا الدولة، بل هناك مكافئات على الترجمة، والحرية في الرأي جعلت بغداد والحواضر الإسلامية قبلة العالم، التي انارها العلم، في مراحل عز الدولة العربية.

إن عصر التشدد في البلاد الإسلامية قد لا يكون وصل الى قتل الفلاسفة، ولكن تبرز لنا عدة أمور منها:

1–بما أن ابداعاتهم وبحوثهم ومؤلفاتهم كانت سابقًا مرتبطة بالدعم او الاعطيات التي كان يمنحها الخلفاء، فعندما قطع الدعم والتشجيع للفكر قل الإنتاج العلمي، وبما أن الباحث يحتاج الى أموال لكي يعيش، واموال لكي يتفرغ للبحث، فهو إن كان يعمل ليكسب عيشه، حصل على أموال ، ولكن لن يتبقَ له وقت للإنتاج الفكري والابداع.

2–عندما كانت هناك مخاطر تهدد الدول الإسلامية، سواء في الشام او مصر او الاندلس او المشرق الإسلامي، وعندما تتعرض الدولة لخطر كان الحاكم ولأجل الدفاع يستنهض القوى الشعبية وذلك بحرق كتب الزنادقة(الفلاسفة) كما يسموهم، وتقريب رجال الدين، فيكون مصيرهم التنكيل او الابعاد.

3-الفتوى التي كانت تقال في بغداد نجد صداها في المغرب والمشرق، فيكون الفلاسفة وأصحاب الرأي مطاردين، فيتجنب أي مفكر التصريح برأيه.

وفي اوربا عندما كان الفيلسوف يطارد في باريس، كان يذهب الى فينا او لندن، وبالعكس. لأن هناك اختلافات بين البروتستانت والكاثوليك استغلها الفلاسفة، فمن يطارده رجال التفتيش الكاثوليك، يذهب الى دولة بروتستانتية ويجد من يستقبله ويكرمه، وبالعكس كذلك. في حين أن في البلاد الإسلامية لم يستغلها المفكرون مثلما استغلها الفلاسفة الاوربيون عندما يطاردون.

4-في مرحلة ضعف الحكام وسيطرة جهات أخرى على السلطة والقرار، وتمكن رجال الدين من فرض آرائهم وتقييد العلوم والعلماء، مثل: اصدار كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي، ثم فتوى ابن الصلاح الشهرزوري بتحريم الفلسفة، مرت البلاد العربية في حقب مظلمة هيأت لدخول المغول؛ لعدم وجود فكر ونهضة تشخص الخلل، فقط الحاكم ورجال الدين متعاونون.

إن دراسة الجانب الديني ليس سيئًا، وهو من الفرائض، ولكن كما قال ابن خلدون إنه يجب أن يدرس القرآن ولكن يجب أن لا نقتصر عليه، فلا يفهم القرآن بلا دراسة اللغة العربية، والعلوم الأخرى. يتيسر بها فهم العلوم الشرعية.

إذ إن رجال العلم دائمًا على منافسة مع الحاكم فهناك من يتكلم وينتقد ويصلح.

ونصل الى أن الحل الاصلح هو أن رجال الدين مكانهم أماكن العبادة، يصلحون الناس، ويعلموهم شؤون العبادة، ففي اوربا عندما تمكنوا بالاتفاق مع الملوك تم تجهيل الشعب، ونهضت اوربا في العصور الحديثة، عندما تحرروا من سلطة الكنيسة.

وأسوأ أنواع الحروب هي الحروب الدينية، كما شهدناها في أوربا؛ لأن كل طرف يصدر فتوى بالقتل والابادة وكل منهم يدعي أنه ينفذ أوامر الرب.

وبعد انتشاره لم يحاسب طلبة العلم بل شجع العلوم.

5-الحرية هي النظام الحاسم الأول في رقي الأمم، ووجودها يضيق او يتسع في الدولة الديمقراطية او الدينية او العسكرية، والحرية هي بنت العدالة الشرعي، ولولا العدالة لن تتوافر الحرية، فالحرية توجد حيث تتوافر في البلاد العدالة وانعدام الظلم، وتبعًا لذلك يكون حال التربية العلوم. -الحرية الأساس في موضوع ارتقاء الأمم، والجزء الاخر توجيه الدولة، وذلك عبر الدعم الموجه لكل قطاع، فالدولة العسكرية تغدق العطاء للقادة ومن ينتصرون في المعارك، مثل: روما ودولة السلاجقة، حتى وإن كان هناك القليل من الحرية، ولكن اهتمام الناس موجه لموضوع اخر. والدولة الدينية قد تضغط على الحريات وتحجمها، ودعمها لمن يدور في

فلكها مثل حكم الصين واهتمامهم فقط بكونفوشيوس وتعاليمه وتركوا كل العلوم ومقياس النجاح والولاء هو دراسة كونفوشيوس، وروما بعد وثيقة قسطنطين، وبغداد بعد فتوى ابن الصلاح الشهرزوري بتحريم الفلسفة والفكر، وروما.

ونجد أن اثينا حينما تمتعت بالحرية الفكرية والسياسية، وتقييم وتشجيع كل مبدع ازدهرت، وبغداد في الدولة العباسية عندما أجزل العطاء لرجال العلم وأصبحت الكتب توزن بالذهب او الفضة، أصبحت بغداد مركز استقطاب لكل مبدع، وكذلك اوربا بعد.

6- مهما حصل في الشرق فإن المدن الإسلامية يعيش فيها كثير من الديانات والملل الأخرى متعايشون بسلام بجوار بعض، حتى في مدينتنا سامراء هناك سوق واسمه سوق اليهود، وكانوا يعيشون بسلام حتى حصلت الخلافات السياسية بعد إقامة إسرائيل.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الزيني، إبراهيم (2014). فولتير. القاهرة: دار كنوز.
2. سوسة، احمد (1979). حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور. بغداد: المكتبة الوطنية.
3. توينبي، ارنولد، بحث في التاريخ. بقلم موسى سمرفل. ترجمة: طه باقر. موجز المجلدات الستة الأولى. ج1.
4. بركة، بسام. (د.ت). الأسماء والتسميات مرآة الثقافة وذاكرة التاريخ. مجلة العربي. العدد 602.
5. رسل، براتراند. حكمت الغرب.
6. مظهر، جلال (د.ت). مآثر العرب على الحضارة الاوربية. القاهرة: مطبعة ألوان.
7. عبد الحميد، حسن (1986). التفسير الابستمولوجي لنشأة العلم، مجلة عالم الفكر، المجلد السابع عشر العدد الثالث، أكتوبر نوفمبر ديسمبر الكويت.
8. سوادي، عبد محمد (1987). عباس بن فرناس من رواد الفكر العربي في الاندلس. مجلة عالم الفكر. المجلد السابع عشر. العدد الرابع، يناير فبراير مارس.
9. هونكة، زيغريد (1964). شمس العرب تسطع على الغرب. ت: فاروق بيضون. بيروت.
10. القيسي، ماهر فاضل واخرون (2002). أسس التربية. بغداد: دار الكتب.
11. الادهمي، محمد مظفر(د.ت). تاريخ اوربا في عصر النهضة. الجامعة المستنصرية. بغداد .
12. فولتير (2014). رسائل فلسفية، ت: عادل زعيتر. بيروت: دار التنوير.
13. عبد الغني، عبد الرحمن (د.ت). فوتيوس والقطيعة بين كنيستي روما القسطنطينية في القرن التاسع الميلادي.
14. بيكون، غايتان مع نخبة عالمية (1965). افاق الفكر المعاصر. ترجمة: لجنة من الأساتذة الجامعيين. بيروت: دار عويدات.
15. نيبور، كارستن (2006). رحلة نيبور الى العراق. في القرن الثامن عشر. ترجمة: محمود حسين الأمين. بيروت: الدار العربية للموسوعات .

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

16.مجلة عالم الفكر. (1986). لمجلد السابع عشر. أكتوبر نوفمبر ديسمبر العدد الثالث. الكويت.
17.عمران، محمود سعيد (1998). حضارتا أوربا في العصور الوسطى. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
18.ديورانت، ول وايريل (د.ت). موسوعة قصة الحضارة. ت: فؤاد اندراوس. اشراف: سعيد اللحام. (د.م).

List of Sources and References:

1. Al-Zayni, Ibrahim (2014). Voltaire. Cairo: Dar Kunooz.
2. Susa, Ahmad (1979). The Civilization of the Arabs and the Stages of Its Development Through the Ages. Baghdad: National Library.
3. Toynbee, Arnold. A Study of History. By Musa Samarfal. Translated by Taha Baqir. Abridgment of the first six volumes. Vol. 1.
4. Baraka, Bassam (n.d.). Names and Designations: A Mirror of Culture and the Memory of History. Al-Arabi Magazine, Issue 602.
5. Russell, Bertrand. The Wisdom of the West.
6. Mazhar, Jalal (n.d.). The Achievements of the Arabs in European Civilization. Cairo: Alwan Press.
7. Abdul Hamid, Hassan (1986). The Epistemological Interpretation of the Emergence of Science, Alam Al-Fikr Journal, Vol. 17, No. 3, October–November–December, Kuwait.
8. Suwadi, Abdul Muhammad (1987). Abbas Ibn Firnas: One of the Pioneers of Arab Thought in Al-Andalus. Alam Al-Fikr Journal, Vol. 17, No. 4, January–February–March.
9. Hunke, Sigrid (1964). Allah's Sun Over the Occident. Translated by Farouq Baydoun. Beirut.
10. Al-Qaisi, Maher Fadil et al. (2002). Foundations of Education. Baghdad: Dar Al-Kutub.
11. Al-Adhami, Muhammad Muzaffar (n.d.). History of Europe in the Renaissance. Al-Mustansiriya University. Baghdad.
12. Voltaire (2014). Philosophical Letters. Translated by Adel Zuaiter. Beirut: Dar Al-Tanweer.
13. Abdul Ghani, Abdul Rahman (n.d.). Photius and the Schism Between the Churches of Rome and Constantinople in the Ninth Century AD.
14. Bacon, Gaetan with an international elite (1965). Horizons of Contemporary Thought. Translated by a Committee of University Professors. Beirut: Dar Oweidat.
15. Niebuhr, Carsten (2006). Niebuhr's Journey to Iraq in the Eighteenth Century. Translated by Mahmoud Hussein Al-Amin. Beirut: Arab House of Encyclopedias.
16. Alam Al-Fikr Journal (1986). Vol. 17, October–November–December, Issue 3. Kuwait.
17. Imran, Mahmoud Saeed (1998). The Civilization of Europe in the Middle Ages. Cairo: Dar Al-Ma'rifa Al-Jami'iyya.
18. Durant, Will and Ariel (n.d.). The Story of Civilization Encyclopedia. Translated by Fouad Andraos. Supervised by Saeed Al-Lahham. (n.p.).